خالد الفليج

شرح القواعد الأربع-الفليج

رقم الكتاب في المكتبة الشاملة: ١٠٦١٧٠
الطابع الزمني: ٣٢-٤٠-٢١-١٦-١٢-٢٠٢٢
المكتبة الشاملة رابط الكتاب

المحتويات

عن الكتاب

الكتاب: شرح القواعد الأربع
المؤلف: خالد الفليج
المصدر: الشاملة الذهبية

عن المؤلف

خالد الفليج

١ مقدمة القواعد الأربع

مؤسسة التحايا للإعلام تقدم:
تفريغ الدورة الصوتية:
شرح القواعد الأربع
للشيخ:
خالد الفليج (¬١)
- حفظه الله-
تم نشر هذا التفريغ في:
شعبان ١٤٣٥ - يونيو ٢٠١٤ م

(¬١) ترجمة الشيخ في المرفق

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه أجمعين، قال الإمام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالى- ومن آواه ونصره في القواعد الأربع:

مقدمة القواعد الأربع

(أَسْأَلُ اللهَ الْكَرِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَتَوَلاكَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَنْ يَجْعَلَكَ مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتَ، وَأَنْ يَجْعَلَكَ مِمَّنْ إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ، وَإِذَا أَذْنَبَ اسْتَغْفَرَ، فَإِنَّ هَؤُلاءِ الثَّلاثُ عُنْوَانُ السَّعَادَةِ

اعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ: أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ، وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: ٥٦] فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ اللهَ خَلَقَكَ لِعِبَادَتِهِ، فَاعْلَمْ أَنَّ الْعِبَادَةَ لا تُسَمَّى عِبَادَةً إِلا مَعَ التَّوْحِيدِ، كَمَا أَنَّ الصَّلاةَ لا تُسَمَّى صَلاةً إِلا مَعَ الطَّهَارَةِ، فَإِذَا دَخَلَ الشِّرْكُ فِي الْعِبَادَةِ فَسَدَتْ، كَالْحَدَثِ إِذَا دَخَلَ فِي الطَّهَارَةِ، فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الشِّرْكَ إِذَا خَالَطَ الْعِبَادَةَ أَفْسَدَهَا، وَأَحْبَطَ الْعَمَلَ، وَصَارَ صَاحِبُهُ مِنَ الْخَالِدِينَ فِي النَّارِ عَرَفْتَ أَنَّ أَهَمَّ مَا عَلَيْكَ مَعْرِفَةُ ذَلِكَ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُخَلِّصَكَ مِنْ هَذِهِ الشَّبَكَةِ، وَهِيَ الشِّرْكُ بِاللهِ الَّذِي قَالَ اللهُ تَعَالَى فِيهِ: {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ} [النساء: ١١٦] وَذَلِكَ بِمَعْرِفَةِ أَرْبَعِ قَوَاعِدَ ذَكَرَهَا اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ)

الحمد لله وصلى اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

هذا الكتاب الموسوم بالقواعد الأربع كتابٌ عظيمٌ جليلٌ ألفه وجمع قواعده شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالى- وهذا الكتاب من أنفع وأعظم كتب الشيخ -رحمه الله تعالى- حيث جمع فيه قواعد في تقرير التوحيد وتبيينه وإيضاحه وقواعد أيضًا في كشف الشرك وإبطاله وهو كتابٌ مختصر من كتاب كشف الشبهات فهو يشتمل على قواعد تقريرية يبين فيها أصل الدين وقواعد ينقض فيها شبه المبتدعة وشبه الخرافيين والقبوريين وقواعد أيضا تبين معنى العبودية ومعنى الشفاعة وما هو الفرق بين من عبد الله وبين من عبد غيره فهي قواعد مهمة يحتاجها طالب العلم أن يحفظها وأن يقرأها وأن يتدارسها دائمًا حتى يتقنها ويعرفها ويحسن معرفتها وفهمها.

أولاً: القواعد جمع قاعدة والقاعدة هي أمر كلي أو قضية كلية يندرج تحتها مسائل كثيرة وقد صنف أهل العلم قواعد كثيرة , قواعد تتعلق بالحديث وقواعد تتعلق بالفقة وقواعد تتعلق باللغة وقواعد تتعلق بالإعتقاد وشيخ الإسلام هنا قعّد قواعد تتعلق بالعقيدة أي قواعد إذا فهمها طالب العلم وأتقنها استطاع أن يرد على شبه كثيرة وأن يبين معتقد أهل السنة خاصةً في الألوهية فإن هذا الكتاب خاص في توحيد الألوهية فكأنه أراد أن يقدم لك علمًا عظيمًا في قاعدة, ومسائل كثيرة متفرقة في قاعدة, وشبه كثيرة تردها في قاعدة, على صغر هذا الكتاب وعلى قلة قواعدِه إلا أنهُ يعتبر من أنفع كتب شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالى- حيث جمع

كما ذكرت ما يقرر فيهِ التوحيد وما يرّد فيه شبه المبطلين إذًا هذا معنى القواعد وهذه المسألة الأولى، المسألة الثانية أن هذه القواعد لم يستقيها المؤلف -رحمه الله تعالى- من كتب لا تُعرف أو من أقوال لا يُعرف أصحابها وإنما استقاها من كتاب الله عز وجل وهذا مما تميّز به شيخ الإسلام فإنه دائمًا إذا قعّد قاعدة أو قرر تقريرًا أنه يبين وجه الإحتجاج به من كتاب الله عز وجل ومن سنة رسولنا - صلى الله عليه وسلم - فهذه القواعد الأربع استقاها المؤلف كلها من كتاب الله عز وجل ومن سنة رسولنا - صلى الله عليه وسلم - فهو يتبع كل قاعدة بدليل من كتاب الله أو من سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلا يجد أحدٌ أن يرّد هذه القواعد بقول أن هذا القول قولٌ مردود على صاحبه، أو أنه قول لفلان من الناس، وإنما هذه القواعد مبناها على كتاب الله عز وجل ولا يستطيع أحد أن ينقض هذه القواعد أيًا كان ذلك الشخص بل كلٌ يسلم بما في هذه القواعد من تقرير وما فيها من حجج وبراهين، لأنها مستقاة من كتاب الله عز وجل.

ابتدأ المؤلف -رحمه الله تعالى- هذه القواعد بالبسملة وقد ذكرنا ما يتعلق ببدأ البسملة عند أهل العلم .. إقتداءً بكتاب الله وإقتداءً بسنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وآخذًا من حيث الواجب في ذلك وهو ضعيف كما ذكرت في الدرس السابق، وجريًا على تصانيف أهل العلم وأيضًا خامسًا كما ذكرنا سابقًا من باب الإستعانة والتبرك.

يقول: (أَسْأَلُ اللهَ الْكَرِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَتَوَلاكَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَنْ يَجْعَلَكَ مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتَ)

هنا يتميز الشيخ -رحمه الله تعالى- أنه يبتدأ كتبه دائمًا بالدعاء للسامع وللقارئ وهذا الدعاء يتضمن أمور:

١. أن الشيخ ناصح وأنه مشفق وأنه يريد بك الخير في الدنيا والآخرة.

٢. أن هذا العلم رحمة، وأن العلماء رحماء، فمن عظيم رحمته -رحمه الله تعالى- أنه دعى لك لتعلم أني أردت بك الخير وأردت بك النصح وأن تقبل بقلبك وسمعك على ما يقال وعلى ما تقرأه من كلام.

إذًا هذا سبب بدأه -رحمه الله تعالى- بالدعاء، وقد كان أهل العلم يبتدؤن مصنفاتهم بالدعاء للقارئ كما في مسلم -رحمه الله تعالى- بدأ مقدمة صحيحه بقوله: (اعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللهُ) وبدأ أيضًا شيخ الإسلام في أصوله الثلاثة وفي أكثر كتبه يبدأ دائمًا بالدعاء للقارئ وللسامع.

وقد دعى لقارئ هذا الكتاب بثلاث دعوات، والصحيح أنها دعوةً عامة وليست خاصة لكل قارئ لهذا الكتاب ولكل سامع لهذا الكلام.

(أَسْأَلُ اللهَ الْكَرِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) وفي هذا تعظيم لله عز وجل بأن سأله بكونه كريم ووجه الإختصاص بذكر الأسم بالسؤال أنه من كرمه سبحانه وتعالى أن يفيض عليك من رحماته وأن يفتح عليك في فهمك وأن يهديك إلى الصراط المستقيم فهو الكريم الذي يتفضل بفضائله سبحانه وتعالى.

(رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) الذي هو أعظم مخلوقات الله عز وجل وخص العرش بالربوبية لأنه أعظم مخلوقات الله عز وجل التي لا نراها فالسماوات والأراضين هي أكبر المخلوقات التي نشاهدها وهي على عظم خلقها لا تساوي في العرش إلا كخردلة أو كحلقة ألقيت في فلاك السموات السبع والأراضين السبع في الكرسي ما هي إلا كحلقة في فلاك والكرسي في العرش كخردلة في كف أحدنا، إذًا العرش خلقٌ عظيم لا يعلم قدره إلا ربنا سبحانه وتعالى، فخصه بالذكر لأنه أعظم المخلوقات.

قال: (أَنْ يَتَوَلاكَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ) وتولي الله لك في الدنيا والآخرة هو الفوز الأبدي لك فإذا تولاك الله في الدنيا فإن توليه لك يكون نصرك وتأييدك وحفظك وعصمتك من الشبهات والشهوات ونصرك أيضًا من أعدائك المخالفين لك كلها تدخل تحت التولي في الدنيا، وأما في الآخرة فإذا تولاك الله عز وجل فإن معناها أن ينجيك من عذابه ومن سخطه وأن ينجيك من أهوال يوم القيامة ومن كربها وأن يدخلك في جنته سبحانه وتعالى وأن يظلك في ظله ويعطيك كتابك بيمينك فهذا كله بمعنى يتولاك في الدنيا والآخرة.

(وَأَنْ يَجْعَلَكَ مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتَ) إذًا التولي في الدنيا والتولي في الآخرة وأن يجعلك مباركًا والمبارك هو الذي شمله الخير والعلم والهدى

في نفسه وتعداه إلى غيره.
قد يكون العبد صالحاً تقيًا تعلقت بركته في نفسه هو فإذا تعدت البركة إلى غيره سمي مباركًا، ولذلك قال عيسى عليه السلام: {وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ} (¬١) قال أهل التفسير في معنى (مبارك) هنا: آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر وكذلك المؤمن يكون مباركًا كالشمس حيث طلعت نفعت، فالبركة تكون بالعلم والصدقة والمال وتكون بالجاه إذا نفع الإنسان غيره بعلمه أو بماله أو بجاههِ فإنه يسمى مباركًا.

____
(¬١) مريم: ٣١

كما جاء في الصحيحين عن عائشة أن أسيد بن الحضير قال لها: (ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر) (¬١) (¬٢) عندما أنزل الله رخصة التيمم لفقد عقدها فكان هذا أثر بركة عائشة وأثر بركة والدها -رضي الله تعالى- عنهم أجمعين.
إذًا المبارك هو الذي يحصل نفعه لنفسه ويتعداه إلى غيره إما بالتعليم وإما بالدعوة وإما بالصدقة فحيث حل تحل البركة معه أينما كنت.
ثم قال بعد ذلك: (وَأَنْ يَجْعَلَكَ مِمَّنْ إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ، وَإِذَا أَذْنَبَ اسْتَغْفَرَ، فَإِنَّ هَؤُلاءِ الثَّلاثُ عُنْوَانُ السَّعَادَةِ) هذه الدعوة الثالثة أن يجعلك ممن إذا أعطي شكر وإذا ابتلي صبر وإذا أذنب استغفر فهذه عنوان السعادة.
هذه الثلاثة ذكرها ابن القيم -رحمه الله تعالى- (¬٣) وقال عنوان سعادة العبد أن يحقق هذه الثلاث .. عنوان سعادته السعادة الأبدية السرمدية أن يحقق هذه الثلاث المراتب وهي: إذا أعطي شكر والعطاء يتعلق بالعطاء الحسي وبالعطاء المعنوي وأعظم ما يُعطاه العبد الإسلام والإيمان هذه أعظم نعمة يتطلب فيها العبد أن يكون من أهل الإسلام وتعظم النعمة أن يكون من أهل السنّة وتعظم أن يكون من العاملين بالسنة المتبعين لرسولنا - صلى الله عليه وسلم - الملتزمين المستقيمين السالكين لطريقه - صلى الله عليه وسلم - فلو شكر العبد ربه على نعمه طول حياته ما أدى شكرها، إذا أعطي شكر وهناك نعم أخرى من عافية وصحة ومال كل هذه النعم المرئية وغير المرئية المحسوسة وغير المحسوسة تحتاج العبد أن يشكر الله عز وجل عليها والشكر له ثلاث أركان:
١. الشكر باللسان، وذلك بأن يثني على الله عز وجل بهذه النعمة.
٢. الشكر بالقلب، وهو أن يعتقد أن النعم كلها من الله عز وجل.
٣. الشكر بالجوارح، وهو أن يعمل بجوارحه في طاعة الله عز وجل.
أما إذا اعطاك الله عز وجل نعم ثم لم تثني بها على الله ولم تعتقد أنها من عند الله أو أعملت جوارحك في معصية الله عز وجل فإنك لا تكون شاكرًا لهذه النعمة، بل تكون كافرًا بها، أما إذا أعتقد أن المنعم غير الله فيكون الكفر كفرًا أكبر أما إذا نسب إلى الله عز وجل ولم يثني على الله ولم يحمده على هذه النعم فيكون مقصرًا تاركًا لما أوجبه الله عز وجل عليه كذلك إذا أعمل جوارحه في معصية الله ولا يستطيع أحد أن يعصي الله عز وجل إلا بنعمة من نعمه سبحانه وتعالى لا يستطيع أحد أن يعصي الله بالنظر إلا بعينيه ولا يستطيع أن يعصي الله عز وجل بالسماع إلا بإذنه فكل معصية يرتكبها العبد فإنما يعصي الله بنعمة الله عز وجل فحقيقة الشكر هو أن تعمل هذه الجوارح بطاعة الله سبحانه وتعالى وأن تستقدمها في مرضاة الله سبحانه وتعالى، إذًا هذا هو
(إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ) أن يحقق أركان الشكر من قلبه ولسانه وجوارحه.
الأمر الثاني (إِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ) والبلاء ينقسم إلى قسمين:
١. معائب
٢. ومصائب
بلاء المصائب هو ما يعتري العبد من مصائب الدنيا كمرض وسقم وأخذ مال أو سرقة مال أو فقد عزيز أو فقد غالي فإن هذه مصائب، الواجب على المسلم إذا أبتلي بهذه المصائب أن يصبر وأن يظهر الصبر وأن يظهر التسليم لله عز وجل وأن لا يجزع ولا يسخط.

الإبتلاء أيضًا أن يبتلى بهذه المعايب كالمعاصي والذنوب الواجب على المسلم أن يصبر على مفارقتها وعلى تركها وعلى الإبتعاد عنها فهذا هو الصبر على المعايب.

____

(¬١) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الحيض , باب " التيمم " برقم: ٣٦٧

(¬٢) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب التيمم , باب " التيمم ..... " برقم: ٣٣٤

(¬٣) أنظر: الوابل الصيب ورافع الكلام الطيب / لابن القيم - ص ٥ , ط: دار عالم الفوائد , تحقيق: عبد الرحمن بن حسن بن قائد

أيضًا من الصبر الصبر على ما أوجبه الله عز وجل وما أمر به ربنا ورسولنا - صلى الله عليه وسلم - بامتثال أوامر الله وأوامر رسوله - صلى الله عليه وسلم -.

والصبر ثلاث منازل:

١. صبر على أوامر الله.

٢. الصبر على أقدار الله.

٣. الصبر عن من حرم الله عز وجل.

فمن حقق الصبر بأنواعه الثلاث كان ممن إذا أبتلي صبر سواء على المصايب أو على المعائب أو على الأوامر.

والقسم الثالث .. والعلامة الثالثة من علامات السعادة قال: (وَإِذَا أَذْنَبَ اسْتَغْفَرَ) والذنب لا ينفك العبد منه أبدا، كما جاء في الصحيحين عن ابن عباس عن أبي هريرة أنه قال: أنه سمع الرسول - صلى الله عليه وسلم - يقول: (كتب على ابن آدم حظُّه من الزنا أدرك ذلك لا محالةَ: فالعينان تزنيان وزناهُما النظرُ والأذنُ تزني وزناها السمعُ واللسانُ يزني وزناه المنطقُ واليدُ تزني وزناها البطشُ والرجلُ تزني وزناها المشيُ) (¬١) فالعبد لابد أن يقع في الذنب إلا أن الناس يفترقون بعد الوقوع في الذنب فأكثر الناس نسأل الله العافية والسلامة إذا وقعوا في الذنب شابهوا إبليس لعنه الله فأصروا واستكبروا ولم يتوبوا إلى الله عز وجل وأما الذين أراد الله لهم النجاة وكانوا من أهل التقوى من المتقين فهم الذين إذا أذنبوا أتبعوا ذنبهم بالتوبة والإستغفار وعندما وصف الله عز وجل المتقين قال: {الَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ} (¬٢)

من علامات المتقين أنهم إذا وقعوا في الذنب استغفروا وتابوا وجاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه: (أن العبد إذا أذنب ذنبًا فقال: يا ربي إني أذنبت ذنبًا فاغفر لي، يقول الله عز وجل: علم عبدي أن له ربًا يغفر الذنب قد غفرت له فإذا عاد للذنب مرة أخرى قال الله كذلك كما في المرة الأولى وإذا عاد في المرة الثالثة يقول الله عز وجل في المرة الثالثة: فليعمل عبدي ما شاء فقد غفرت له) (¬٣) إذا كان هذا حال العبد كلما عصى وكلما وقع في الذنب أستغفر وتاب إلى الله عز وجل فإن الله يغفر له سبحانه وتعالى ولا يمل الله عز وجل من المغفرة حتى تملوا من التوبة فالله سبحانه وتعالى يغفر الذنوب جميعا ويتوب على عباده ويقبل التوبة.

إذًا من حقق هذا العلامات الثلاث فهو السعيد الناجي وتكمل سعادة العبد وتكمل نجاته بتكميل هذه العلامات الثلاث وتنقص سعادته وينقص من كمالها بقدر ما نقص من هذه العلامات الثلاث فإذا قل شكره أو قل استغفاره أو قل صبره فإنه ينقص من السعادة بقدر ما نقص.

إما أن تنقص السعادة كلها نسأل السلامة فيخلد في نار جهنم وإما أن ينقص بعضها فيدخل النار ما شاء الله أن يدخل ثم يغفر الله له ويخرجه للجنة وإما أن لا يدخل النار أبدا ويكون من السعداء السعادة الأبدية السرمدية.

قال بعد ذلك: (اعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ: أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ، وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: ٥٦])

____

(¬١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الاستئذان , باب " زنا الجوارح دون الفرج " برقم: ٣٣٤

(¬٢) آل عمران: ١٣٦

(¬٣) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب التوحيد , باب " قول الله تعالى {يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ} " برقم: ٧٥٠٧

(اعْلَمْ) العلم هو إدراك الشيء على حقيقته والشيخ -رحمه الله تعالى- يأمرك بالتعلم إعلم أي تعلم واعرف واعلم أن الحنيفية ملة إبراهيم .. الحنيفية هي ملة إبراهيم -عليه السلام- والحنيفي هو المائل الحنيفي هي كلمة من الأضداد يطلق الحنيفي على المائل ويطلق أيضًا الحنيفي على المستقيم فهي كلمة من الأضداد تطلق على المائل تطلق على المستقيم ومعناها بصحيح المعنيين فالحنيفي هو: الذي استقام على توحيد الله عز وجل وهو أيضًا المائل بكليته إلى توحيد الله عز وجل التارك للشرك إذا هذا معنى الحنيفي وملة إبراهيم أي طريقته -عليه السلام- وملة إبراهيم لها ثلاثة أركان:

١. إخلاص العباد لله عز وجل وحده.
٢. موالاة أولياء الله عز وجل.
٣. البراءة من الشرك والمشركين.

هذه قواعد ملة إبراهيم.

قال: (أَنْ تَعْبُدَ اللهَ، وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ) العبادة لا تسمى عبادة إلا إذا خلت وخلصت من الشرك والعبادة لها تعريفات كثيرة عند أهل العلم وأصلها في اللغة (التذلل والخضوع)

يقال طريق معبد إذا ذلته الأقدام (الوطئ) كما قال طرفة: (وأُفرِدتُ إفرادَ البَعيرِ المُعَبَّدِ) (¬١) أي البعير الذليل، فأصل التعبد في اللغة التذلل والخضوع وأما في الإصطلاح فلها تعاريف كثيرة من تعاريفها أنها فعل الطاعة وترك المعصية ومنهم من قال: هي فعل ما أمر الله به وأمر به رسوله - صلى الله عليه وسلم - وترك ما نهى عنه الله ونهى عنه رسوله - صلى الله عليه وسلم - ومنهم من قال: العبادة كما عرفها شيخ الإسلام ابن تيمية العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة والعبادة لها أركان، لا تسمى عبادة إلا إذا اشتملت عليها .. أركان العبادة:

- الخوف
- الرجاء
- المحبة

وعبادة الرحمن غاية حبه *** مع ذل عابده هما القطبان (¬٢)

فمن عبد الله عز وجل وهو لا يخافه لا يسمى عابد والذي عبده وهو لا يرجوه أيضًا لا يسمى عابد والذي عبده وهو لا يحبه أيضًا لا يسمى عابد ولا يسمى العبد عبدًا إلا إذا حقق الخوف والرجاء والمحبة ويحتاجها العبد في كل أعماله ولا يمكن أن يتصور العبد أنه يعمل عمل إلا بهذه الأركان الثلاثة، هل يستطيع أحد أن يصلي وهو لا يرجو رحمة الله عز وجل أو يصلي وهو لا يخاف الله عز وجل أو يصلي وهو لا يحب الله سبحانه وتعالى لا شك أن العبد إذا عمل عملاً صالحا فإن عبادته وعمله صادره من محبه وصادره أيضًا من خوف وصادره أيضًا من رجاء فالعابد إنما عبد الله لحبه لله عز وجل وعبده لخوفه منه ومن عذابه ومن سخطه وعبده أيضًا رجاء ثوابه ورجاء رحمته.

____

(¬١) أنظر: شرح المعلقات السبع للقاضي أبي عبد الله الحسين بن أحمد الزوزني (ت: ٤٨٦ هـ) - ص ٦٢ , ط: مكتبة المعارف - بيروت

(¬٢) البيت رقم [٥١٤] من قصيدة (الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية) لابن القيم - ص ٤٣ , ط: دار عالم الفوائد , تحقيق: عبد الله الهذيل - فهد المساعد , محمد العريفي , ناصر الجنيني

إذًا هذه أركان العبادة والعبادة أيضًا لها شرطان:

١. الإخلاص
٢. المتابعة

فلا تصح العبادة من العبد حتى يحقق شرطي العبادة أن يكون عمله خالصًا لله عز وجل وأن يكون عمله موافقًا لهدي محمدٍ - صلى الله

عليه وسلم - والناس في هذا المقام ينقسمون إلى ٤ أقسام:

١. من حقق الإخلاص والمتابعة وهؤلاء هم الكمل من خلق الله عز وجل.

٢. من حقق الإخلاص دون المتابعة وهذا يدخل فيه جهلة العباد وقد يدخل أيضًا بعض الكفار الذين يعبدون الله مخلصين له لكنهم لا يتبعون النبي - صلى الله عليه وسلم -.

٣. من حقق الإتباع ولم يحقق الإخلاص، وهذا يكثر عند المنافقين.

٤. من لم يحقق الإخلاص ولا الإتباع، وهم شر الخلق.

إذًا الناس في هذا المقام أربعة أقسام.

قال: (أَنْ تَعْبُدَ اللهَ، وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ) المسألة هنا وهي لا تسمى العبادة عباده إذا دخلها الشرك نقول العبادة لا تسمى عبادة إلا إذا خلت من الشرك وحصل فيها الإتباع، أما إذا عبد الله عز وجل وهو يشرك بالله سبحانه وتعالى فإنه لا يسمى عابدًا لله عز وجل ولا يسمى عمله هذا عبادة وإنما يسمى عمله هذا عملٌ باطل مردودٌ عليه فلو أتى شخص مشرك لله عز وجل وصلى وصام وزكى فإن أعماله هذه كلها لا تسمى عبادة وترد على صاحبها ولا تقبل منه يوم القيامة لأن الله لا يقبل إلا من أهل الإسلام والدليل قوله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ}.

هذه الآية استدل بها المؤلف -رحمه الله تعالى- ليبين أن المقصد من خلق الخليقة ومن إيجادهم أن يعبدوه سبحانه وتعالى وأن العبادة معناها هو توحيد الله سبحانه وتعالى وإخلاص العبادة له كما قال الكلبي: (إلا يوحدوه) (¬١) ولا يسمى العابد موحد إلا إذا خلى عمله وأقواله وأفعاله من الشرك بالله عز وجل أما إذا أشرك فإنه لا يسمى عابدًا، هنا مسائل كثيرة في باب الجن والإنس ومسائل تتعلق بأحكامهم لكن يعنينا هنا في هذا المقام أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق كلهم لعبادته وأوجدهم ليوحدوه سبحانه وتعالى ويخلصوا له العبادة.

قال: (فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ اللهَ خَلَقَكَ لِعِبَادَتِهِ، فَاعْلَمْ أَنَّ الْعِبَادَةَ لا تُسَمَّى عِبَادَةً إِلا مَعَ التَّوْحِيدِ كَمَا أَنَّ الصَّلاةَ لا تُسَمَّى صَلاةً إِلا مَعَ الطَّهَارَةِ) ومراده -رحمه الله تعالى- أن الذي يشرك بالله عز وجل لا يكون عابدًا لله ولا يسمى محققًا للعبودية وإنما يحقق العبودية العبد إذا أخلص العمل لله عز وجل وأن الشرك ينقض التوحيد كما ينقض الحدث الطهارة وكما يبطل الأكل الصلاة فالشرك بالله عز وجل هو ناقض من نواقض التوحيد ومبطل من مبطلات الإسلام فلا يسمى المشرك موحدا ولا يسمى المشرك أيضًا مسلما فإذا كان هذا حال المشرك وهذا حال من وقع في هذا الأمر حريٌّ بنا أجمعين أن نعرف هذا الشرك وما هو فإن معرفة التوحيد لا يتبين فضلها ولا يتبين عظيم ما أنعم الله به علينا بهذا التوحيد إلا إذا عرفنا خطر الشرك وعرفنا معناه وحقيقته فإن كثيرًا ممن ينتسب إلى الإسلام يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ويظن أنه مسلم ويظن أنه عابد لله عز وجل وهو خارجٌ من دائرة الإسلام بل قد يقوم الليل ويقوم النهار ويتصدق بالآلاف المؤلفة وهو يوم القيامة خالد مخلد في نار جهنم نسأل الله العافية والسلامة بسبب عمل يعمله أو قول يقوله يشرك بالله عز وجل فيه وهو لا يشعر أو وهو لا يدري أو وهو جاهل ولا يعذر بذلك عند الله عز وجل.

____

(¬١) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي (١٧/ ٥٦) - ط: دار عالم الفوائد , تحقيق: هشام البخاري

قال: (فَإِذَا دَخَلَ الشِّرْكُ فِي الْعِبَادَةِ فَسَدَتْ، كَالْحَدَثِ إِذَا دَخَلَ فِي الطَّهَارَةِ) وهذا مجمعٌ عليه كون الشرك يبطل الإسلام وينقض التوحيد هذا مجمعٌ عليه بين أهل العلم كما قال تعالى: {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ} (¬١) فالله أخبر أن نبيه - صلى الله عليه وسلم - وحاشاه لو وقع في الشرك لأحبط الله عز وجل عمله والله يقول: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ} (¬٢) فبين الله عز وجل أن الشرك لا يغفر وإذا لم يغفره الله عز وجل فإن صاحبه يوم القيامة يعذب على هذا الشرك وأن الشرك الأكبر يخرج صاحبه من دائرة الإسلام كما قال تعالى: {إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ

النَّارُ} (¬٣) المشرك خالد مخلد في نار جهنم يستوجب بشركه القتل ويستوجب التكفير والخلود في نار جهنم كما سيأتي في الفرق بين الشرك الأكبر والشرك الأصغر.

قال بعد ذلك: (فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الشِّرْكَ إِذَا خَالَطَ الْعِبَادَةَ أَفْسَدَهَا، وَأَحْبَطَ الْعَمَلَ، وَصَارَ صَاحِبُهُ، مِنَ الخَالِدِينَ فِي النَّارِ. عَرَفْتَ أَنَّ أَهَمَّ مَا عَلَيْكَ مَعْرِفَة ذَلِكَ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُخَلِّصَكَ مِنْ هَذِهِ الشَّبَكَةِ) فإن الشرك والجهل به مدعاة للوقوع فيه فإذا جهل الإنسان شيئًا كان ذلك مدعاة للوقوع فيه وهو لا يشعر فيجب على المسلم بل هو من أوجب الواجبات أن يعرف التوحيد وما يضاده حتى لا يقع في الشرك وهو لا يشعر.

وقد قال حذيفة: (كان الناس يسألون الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني) (¬٤) (¬٥)

وقول الشاعر:

عَرَفْتُ الشَّرَّ لا لِلشَّرِّ *** لَكِنْ لِتَوَقِّيهِ (¬٦)

فيجب على المسلم أن يعرف الشرك وأن يعرف أسبابه وأن يعرف دواعيه حتى يجتنبها كلها فلعله يقول مقولة فيكفر بها أو يعمل عملاً يخرجه من دائرة الإسلام وهو لا يشعر.

يقول الشيخ: (لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُخَلِّصَكَ مِنْ هَذِهِ الشَّبَكَةِ، وَهِيَ الشِّرْكُ بِاللهِ الَّذِي قَالَ الله تَعَالَى فِيهِ: {إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ} [النساء: ١١٦])

ولا يمكن للمسلم أن ينفي عن نفسه شيء وهو لا يعلمه فهل يستطيع الشخص أن يقول أنا لست بمشرك وهو لا يعرف الشرك؟ أو يقول أنا موحد على التوحيد وهو لا يعرف التوحيد؟ لا يمكن ذلك إلا بمعرفة التوحيد ومعرفة ضده فإذا عرف الإنسان الشرك استطاع أن ينفيه عن نفسه واستطاع أيضًا أن يجتنبه والشرك له صور كثيرة يقع في هذه الأزمنة بل كان يقع عند عوام المسلمين وهم لا يشعرون مثلاً:

____

(¬١) الزمر: ٦٥

(¬٢) النساء: ٤٨

(¬٣) المائدة: ٧٢

(¬٤) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب المناقب , باب " علامات النبوة في الإسلام " برقم: ٣٦٠٦

(¬٥) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإمارة , باب " وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال, وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة " برقم: ١٨٤٧

(¬٦) ديوان أبي فراس الحمداني - ص ٣٥٢ , ط: دار الكتاب العربي

مما يذكر في هذا المقام، سألني بعض الإخوة أنه يذبح للجن إذا خاف الجن ذبح له وتقرب إليهم من باب دفعهم عن نفسه وهذا شرك أكبر مخرج عن دائرة الإسلام، بعضهم نسأل الله العافية والسلامة إذا وقع وانكسر له سن أخذه واستقبل الشمس ثم خاطب الشمس: يا شمس خذي هذا السن وأعطيني سن بدلاً منه وهذا شرك بالله شرك أكبر يخرج من دائرة الإسلام وغيرها من الأقوال والأفعال التي يفعلها العوام وهي تخرجهم من دائرة الإسلام، بل حدثني بعض الإخوة أن أمًا لهم، كان الإبن هذا تفوته صلاة الفجر فقالت أمه له: يا بني ألا أخبرك بدعاء تدعو به عند نومك فيقومك الله عز وجل فقال: يا أمي ما هو؟ فقالت تقول عند النوم: (يا رسول الله أيقظني) وتردد هذا سنوات عدة وهي تقول: (يا رسول الله أيقظني) قال: يا أماه أنت مشركة بالله عز وجل، فلو عرفت هذه المرأة التوحيد ما أشركت بالله عز وجل ولو عرفت معنى الشرك وأنه دعوة غير الله عز وجل لما وقعت في هذا الأمر فالجهل بالشيء سببٌ في الوقوع فيه فالواجب على المسلم أن يعرف التوحيد وأن يعرف الشرك.

قولنا هنا هو الشرك بالله .. الشرك أصله من التشريك وهو أن يجعل الواحد اثنين أو أكثر والشرك له عند أهل العلم تعاريف كثيرة

٢ القاعدة الأولى: وهي قاعدة مسلمٌ بها وقد دل على هذه القاعدة كتاب الله عز وجل وهذه القاعدة فيها رد وتقرير أما الرد فهو ردٌ

علي من يقول أن التوحيد هو أن تعتقد أن الله هو الخالق الرازق المدبر المحيي المميت وأن هذا هو التوحيد الذي جاءت به الرسل،
ومن أحسن ما يقال فيه: هو مساواة المخلوق بالخالق فيما هو من خصائص الخالق.
ففي هذه ا
~~وهذا يشمل الشرك في توحيد الربوبية ويشمله في توحيد الألوهية ويشمله في توحيد الأسماء والصفات ومنهم من يقصر الشرك على~~

توحيده فيقول: هو دعوة غير الله، فإذا دعى غير الله عز وجل كان مشركًا الشرك الأكبر وهو أنواع وأقسام يدخل الشرك في توحيد الربوبية من جهة الإعتقاد كأن يعتقد أن مع الله خالقًا أو رازقًا أو مدبرًا أو محيّيًا أو مميتًا أو من ينزل المطر سوى الله عز وجل يكون هذا مشركاً شركًا أكبر في توحيد الربوبية ويكون مشركًا في توحيد الأسماء والصفات أن يسمي المخلوق بأسماء الله عز وجل كأن يسمي القهار والجبار .. الأسماء التي يختص بها الله عز وجل كالرحمن يسمي بها المخلوق أو الجبار يسمي بها المخلوق أيضًا أو الخالق ويسمي بها المخلوق أيضًا فهذا يدخل في شرك الأسماء والصفات، أما الأسماء المشتركة التي يشترك بها المخلوق مع الخالق فلا يدخلها هذا المعنى ومنهم من يجعله يدخل في توحيد الألوهية وهو الذي أغدق في الأرض وعم أكثر من وقع فيه يقعون فيه شرك توحيد الألوهية إما من يدعو الأولياء والصالحين وهذا الشرك ممتلئ في الأرض وأكثر بلاد المسلمين تعج به وما من بلد من المسلمين إلا وترى هذا الشرك فيه ظاهرا نسأل الله العافية والسلامة فترى من يدعو الأولياء والصالحين ويعبدوا من دون الله فمنهم من يدعو أي العيدروس ومنهم من يدعو البدوي ومنهم من يدعو عبد القادر الجيلاني ويتقربون إليها كما يتقربون لله عز وجل ويدعونها ويخافونها ويرجونها أشد من خوفهم من الله سبحانه وتعالى، هذا ما يتعلق بالمقدمة، وسندخل بإذن الله عز وجل في القواعد الأربع في الدرس القادم والله أعلم وأحكم وصلى اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد.

ملاحظة: أن هذه القواعد هي خلاصة كتاب كشف الشبهات.

٢ القاعدة الأولى: وهي قاعدة مسلمٌ بها وقد دل على هذه القاعدة كتاب الله عز وجل وهذه القاعدة فيها رد وتقرير أما الرد فهو ردٌ على من يقول أن التوحيد هو أن تعتقد أن الله هو الخالق الرازق المدبر المحيي المميت وأن هذا هو التوحيد الذي جاءت به الرسل، ففي هذه ا

القاعدة الأولى: (أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْكُفَّارَ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مُقِرُّونَ بِأَنَّ اللهَ - تَعَالَى - هُوَ الْخَالِقُ، الْمُدَبِّرُ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَمْ يُدْخِلْهُمْ فِي الإِسْلَامِ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ} [يونس: ٣١])

هذه أولى قواعد هذه القواعد الأربع وقد ذكرنا أن القواعد جمع قاعدة وأن القاعدة هي قضيةٌ كلية تندرج تحتها أجزاء كثيرة أو مسائل كثيرة وهذه القواعد تتعلق بأصول الدين وما يجب على العبد من تحقيق عبودية الله عز وجل وقد أجاد المؤلف -رحمه الله تعالى- باستقراء هذه القواعد من الكتاب والسنة وقد ذكرنا في درس سابق أن هذه القواعد هي خلاصة كتاب كشف الشبهات فقد أختصر شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله- كتاب كشف الشبهات في هذه القواعد.

القاعدة الأولى: وهي قاعدة مسلمٌ بها وقد دل على هذه القاعدة كتاب الله عز وجل وهذه القاعدة فيها رد وتقرير أما الرد فهو ردٌ على من يقول أن التوحيد هو أن تعتقد أن الله هو الخالق الرازق المدبر المحيي المميت وأن هذا هو التوحيد الذي جاءت به الرسل، ففي هذه القاعدة ردٌ على هؤلاء القائلين وينسب هذا القول لأهل الكلام من الأشاعرة وغيرهم فإن في عقائدهم يعرفون الإلهة بقولهم الغني عما سواه المفتقر إليه ما عداه وهذا التقرير تقرير أي توحيد؟ توحيد الربوبية، وهل هذا هو معنى لا إله إلا الله؟ نقول لا فإن لا إله إلا الله

٢ القاعدة الأولى: وهي قاعدة مسلمٌ بها وقد دل على هذه القاعدة كتاب الله عز وجل وهذه القاعدة فيها رد وتقرير أما الرد فهو ردٌ
على من يقول أن التوحيد هو أن تعتقد أن الله هو الخالق الرازق المدبر المحيي المميت وأن هذا هو التوحيد الذي جاءت به الرسل،
لها معنى آخر غير هذا المعنى الذي ينطق به المتكلمون.
ففي هذه ا
~~إذًا هذا هو وجه الرد، أن توحيد الربوبية لم يحصل فيه نزاع ولم يحصل فيه خلاف بين الأمم وأنبيائهم فإن جميع كفار قريش يقرون~~
بأن الله هو الخالق الرازق المدبر المحيي المميت ودليل ذلك قوله تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} (¬١) فهم مقرون بأن الله هو الخالق الرازق المدبر وهذا أمر فطري فطر الله عز وجل الناس عليه عندما أخذ من ظهور آبائهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ فقالوا: بلى.

فشهدوا وأقروا بربوبية الله عز وجل، وكما في الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: (كلُّ مولودٍ يُولَدُ على الفطرةِ، فأبواه يُهَوِّدانِه، أو يُنَصِّرانِه، أو يُمَجِّسانِه) (¬٢) إذًا هذا الأمر الأول ردٌ على من يقول أن التوحيد هو معنى الخالق الرازق الخالق المدبر وهذا قولٌ باطل.

وأما من جهة التقرير فشيخ الإسلام يقرر في هذه القاعدة أن الإقرار بكون الله خالقًا رازقًا مدبرا محييًا مميتًا نافعًا ضارا أنه لا يدخل صاحبه في دائرة الإسلام ولا يكون صاحبه معصوم الدم والمال حتى يحقق مع ربوبية الله عز وجل ألوهيته ولذلك قاتل النبي - صلى الله عليه وسلم - مشركي العرب وكفرهم مع أنهم كانوا يعتقدون بأن الله هو الخالق الرازق المدبر المحيي المميت إذًا التقرير أن توحيد الربوبية لا يكفي في دخول العبد في الإسلام وأنه لا يدخل في الإسلام حتى يجمع أنواع التوحيد الثلاثة فإن التوحيد له أنواعٌ ثلاثة مقرره مستقرأه من كتاب الله عز وجل ومن سنة رسولنا - صلى الله عليه وسلم - وهي:

- توحيد الربوبية
- توحيد الألوهية
- توحيد الأسماء والصفات

¬__________

(¬١) لقمان: ٢٥

(¬٢) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الجنائز , باب " ما قيل في أولاد المشركين" برقم: ١٣٨٥

وتوحيد الربوبية كما ذكرت قد قرّ به وأقر به جميع الخلق ولم يشركوا فيه أو يجحده إلا متكابر معاند وقد ذكر ابن أبي العز الحنفي -رحمه الله تعالى- (¬١) وغير واحد أن هناك من أنكر توحيد الربوبية وأشرك فيه فممن ذكر عنه ذلك أو أول من أنكر ذلك فرعون لعنه الله عندما قال: {أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى} (¬٢) ففرعون كان منكرًا أو مشركًا في توحيد الربوبية مدعي أنه إله مع الله وأنه رب للعالمين ولا شك أن هذا القول من أعظم الطغيان والتعدي وقوله هذا لم يقله وهو مقرٌ به أو أنه يعتقده وإنما كما قال تعالى: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا} (¬٣) ففرعون لعنه الله يقر بأن الله هو الخالق الرازق المدبر المحيي المميت ولكنه طغى وبلغ في الطغيان مبلغًا عظيما حتى أضاف إلى نفسه الربوبية بل أضاف إلى نفسه الإلوهية وقال: ما علمت لكم من إله غيري.

إذًا هذه هي القاعدة الأولى هي تقرير ورد تقرير أن توحيد الربوبية لا ينفع ولا يدخل به العبد في الإسلام والرد على من يقول أن توحيد الربوبية هو معنى لا إله إلا الله، هذه ما علمناه من القاعدة الأولى، وذكر قوله تعالى: {قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ} (¬٤) هذه الآية ايضًا فيها تبيين وتوضيح أن مشركي العرب وكفار قريش كانوا يقرون بأن الله هو الخالق الرازق المدبر ومع ذلك كفرهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - وكفرهم الله بقوله: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ} (¬٥) وصفهم بأنهم كفار وأنهم مشركون به سبحانه وتعالى ولم ينفعهم إقرارهم بهذا الأمر وقد أدعى بعض مشركي زماننا وبعض قبوريي زماننا أن التوحيد الذي جاءت به المرسلين هو توحيد الإعتقاد أن تعتقد أن الله هو النافع الضار أما من اعتقد في الأولياء أنهم وسطاء أو وسائل أو شفعاء أو وجهاء فإن هذا لا يخرجه من دائرة الإسلام وهذه الشبهة ليست حادثة هي شبهة قديمة قررها غير واحد من أعداء دعوة شيخ الإسلام محمد بن عبد

الوهاب و من أدعياء الشرك وعباد القبور والأوثان كابن داوود بن جرجيس وغيره فإنهم كانوا يقررون هذا المسألة ويرون أن الشرك مقصور على الإعتقاد، أن تعتقد فيمن تدعوه وتسأله أنه ينفع ويضر من دون الله عز وجل أما إذا اعتقدت أنه شفيع أو وسيلة أو وجيهًا لك عند الله عز وجل فإن هذا من التوسل الذي يبتغى به وجه الله عز وجل ولا شك أن هذا التقرير باطل وأن هذا القول وإقرار الشرك والرضى به كفر بالله عز وجل وقائله بإجماع أهل العلم الذي يأمر بالشرك ويقره ويراه حسنا أنه كافر بالله عز وجل، هذه القاعدة الأولى.

____

(¬١) أنظر: شرح العقيدة الطحاوية لأبي العز الحنفي - ص ٢٩ , تحقيق: أحمد شاكر
(¬٢) النازعات: ٢٤
(¬٣) النمل: ١٤
(¬٤) يونس: ٣١
(¬٥) الكافرون: ١

٣ القاعدة الثانية

القاعدة الثانية:
(أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: مَا دَعَوْنَاهُمْ وَتَوَجَّهْنَا إِلَيْهِمْ إِلا لِطَلَبِ الْقُرْبَةِ وَالشَّفَاعَةِ، فَدَلِيلُ الْقُرْبَةِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ} [الزمر: ٣]. وَدَلِيلُ الشَّفَاعَةِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللهِ} [يونس: ١٨] وَالشَّفَاعَةُ شَفَاعَتَانِ: شَفَاعَةٌ مَنْفِيَّةٌ، وَشَفَاعَةٌ مُثْبَتَةٌ.
فَالشَّفَاعَةُ الْمَنْفِيَّةُ: مَا كَانَتْ تُطْلَبُ مِنْ غَيْرِ اللهِ فِيمَا لا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلا اللهُ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [البقرة: ٢٥٤].
وَالشَّفَاعَةُ الْمُثْبَتَةُ: هِيَ الَّتِي تُطْلَبُ مِنَ اللهِ، وَالشَّافِعُ مُكَرَّمٌ بِالشَّفَاعَةِ، وَالْمَشْفُوعُ لَهُ مَنْ رَضِيَ اللهُ قَوْلَهُ وَعَمَلَهُ بَعْدَ الإِذْنِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ} [البقرة: ٢٥٥])
قبل أن ندخل في القاعدة الثانية نكمل ما يتعلق بالطوائف التي أنكرت توحيد الربوبية لأننا ذكرنا أولى طوائفهم وهم فرعون لعنه الله.
والطائفة الثانية التي أنكرت توحيد الربوبية هم المانوية نسبة إلى ماني من المجوس الذين قالوا أن للخلق خالقين خالق للخير وخالق للشر ويجعلون النور خالقًا للخير والظلمة خالقة للشر.
الطائفة الثالثة: القدرية مجوس هذه الأمة القائلين بأن العبد يخلق أفعال نفسه.
والطائفة الرابعة: الدهريون الطبائعيون الذين يقولون نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر.
الطائفة الخامسة: بعض مشركي العرب الذين نسبوا المطر إلى الأنواء وقالوا: مطرنا بنوء كذا وكذا فهذا أيضا نوع شرك في توحيد الربوبية وإلا جميع الخلق كلهم يقرون بأن الله هو الخالق الرازق المدبر المحيي المميت.
القاعدة الثانية: هي قاعدةٌ أيضًا فيها رد وتقرير وهذه القاعدة هي أعظم القواعد نفعا وأكثرها فائدة وهي أعظم ما يتعلق به القبوريون والخرافيون في سؤالهم ودعائهم للأموات فهي شبهة قديمة تتجدد في كل زمان وهي شبهة أن الأولياء إنما هم شفعاء ووسطاء عند الله عز وجل ووجهاء نتقرب بهم عند الله سبحانه وتعالى ويقولون نحن لا نعبدهم ولا نسجد لهم ولا نعتقد فيهم النفع والضر وإنما هم عندنا وجهاء وشفعاء .. هذه الشبهة قديمة من عهد محمد - صلى الله عليه وسلم - إلى يومنا هذا وهذه الشبهة ترد بأن هؤلاء الذين يسألون من دون الله ويدعون من دون الله ويرجون من دون الله إنما هم شفعاء ووجهاء ووسائل تقربنا إلى الله عز وجل وأعظم

الشرك الذي وقعت فيه الأمة من هذا الباب فما عبد الأولياء وما عبد الصالحون وما طيف بقبورهم وما ذبحت لهم القرابين ولا نحرت لهم المدن والهدي إلا بهذا المقصد أنهم شفعاء سوى وسائط تقربهم إلى الله عز وجل ولذلك بين ربنا سبحانه وتعالى عن حال مشركي العرب عندما قال: {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى} (¬١) فكان مقصد كفار قريش هو التقرب إلى الله عز وجل وجعل هذه الأشجار وهذه الأنداد وهذه الأوثان شفعاء تقربهم يقصدون بها إتخاذها واسطة وزلفًا إلى الله يتقربون بها عنده، فأراد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في هذه القاعدة أن ينقض هذه الأصول وأن يأتي عليها من بنيانها ومن قواعدها وأن يجعلها هباءً منثورا، وقد أحسن وأجاد وأفاد في رد هذه الشبهة في كتابه كشف الشبهات وتنزل مع الخصم تنزلاً عجيبا حتى قرره بشركه وكفره بالله عز وجل فقد أطال في كشف الشبهات وهنا أختصر.

____

(¬١) الزمر: ٣

الذي يعنينا هنا مسائل:

المسألة الأولى: حقيقة الشرك .. الشرك هو أن تصرف شيئًا مما يستحقه ربنا سبحانه وتعالى لغيره، أو نقول أن الشرك هو: مساواة المخلوق بالخالق فيما هو من خصائص الخالق، أو نقول هو: دعوة غير الله مع الله سبحانه وتعالى فعند النظر في حال هؤلاء الذين يتخذون الأولياء والصالحين وسطاء وشفعاء هل وقعوا في الشرك حقيقة أو لا؟

إذا عرفنا أن الشرك هو دعاء غير الله عز وجل وصرف ما هو من خصائص الله لغير الله عز وجل ثم نظرنا في أحوال هؤلاء السائرين لأولئك الأموات من الصالحين والأنبياء وغيرهم وجدناهم أنهم يعبدونهم من دون الله ويدعونهم ويرجونهم ويسألونهم بل يعتقدون فيهم مالا يعتقدونهُ في ربنا سبحانه وتعالى فعندما يقف أحدهم على قبر عبد القادر الجيلاني مثلا ويقول: أنا في حسبك، أنا في رجائك أنا في حماك.

هذا هو الشرك الصريح الأكبر الذي كان يفعله كفار قريش وكان يفعله مشركي العرب عند اللات والعزى بل مشركوا قريش كانوا أخف شركًا من مشركي زماننا، كما سيأتي في آخر قاعدة من هذه القواعد الأربع فقولكم أن هذا ليس بشرك هذا قولٌ باطل بل هو عين الشرك وهو صريحهُ الذي كفر الله عز وجل به مشركي العرب وكفر الله عز وجل به كفار قريش الذين كانوا يعبدون اللات والعزى فسؤالكم للأموات ودعائهم هو الشرك وهؤلاء مع الأموات على أربع حالات:-

١ - من يدعوا الأموات والأولياء والصالحين ويعتقد فيهم النفع والضر وأنهم يستقلون بذلك وهذا كافرٌ بإجماع المسلمين.

٢ - أن يدعوهم ويعتقد أنهم وسطاء عند الله عز وجل وأنهم يستجيبون له ويقضون حوائجه لكنهم ليس يفعلون ذلك إستقلالاً إلا بأمر الله وهؤلاء أيضًا كفار بالإجماع ومشركون بالإجماع وقد نقل الإجماع على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية وغير واحد من أهل العلم.

٣ - أن يدعوهم ويسألهم أن يدعوا الله له ويسأل الله له وهذه المسألة وقع فيها نزاع بين أهل العلم في هذه الأزمنة وهي أن هذا كأنه يخاطب الموتى بأن يسألوا الله له والصحيح الذي ذكره عبد الله بن حسن وعبد اللطيف بن عبد الرحمن وغيره من أئمة الدعوة أن هذا داخلٌ في الشرك الأكبر، فإن قوله يا عبد القادر ادع الله لي هو دعاء وسؤال لغير الله عز وجل فالمخاطبة بصيغة السؤال والدعاء يخرجه من دائرة الإسلام، ولكن حيث أن المسألة قد تشتبه وهي مسألة قد تخفى على كثير من الناس فلا يكفر فاعلها حتى تقام عليه الحجة في هذا الأمر ويبين له أن دعائه بهذه الصيغة أنه سؤال لغير الله عز وجل بخلاف النوعين الذين قبل هذا النوع.

٤ - أن يدعوا الله عز وجل متوسلاً بجاه الأولياء والصالحين وهذا التوسل توسل بدعي لا يجوز وهو من الشرك الأصغر، لأن كل ما كان وسيلة للشرك الأكبر فهو من الشرك الأصغر.

إذًا المسألة الأولى نقول أن سؤالكم ودعائكم شرك بالله لأنكم صرفتم الدعاء لغير الله عز وجل والدعاء دعاءان:

١. دعاء مسألة
٢. دعاء عبادة

إما أن تدعوهم بلسان الحال وإما أن تدعوهم بلسان القال ولا شك أن هؤلاء قد دعوهم وسألوهم بحالهم وبقالهم.

المسألة الثانية: قول مشركي زمان الشيخ -رحمه الله تعالى- أننا لا نعتقد فيهم النفع والضر وأن النافع الضار هو الله سبحانه وتعالى وقالوا فرق بيننا وبين مشركي العرب من هذه الجهة فمشركي العرب كأبي لهب وأبي جهل وغيرهم من صناديد قريش كانوا يعتقدون في اللات والعزى أنها تنفع وتضر من دون الله أما نحن فلا نعتقد ذلك وإنما نعتقد فيها أنهم شفعاء وأنهم وجهاء عند الله عز وجل هذه الشبهة أيضًا قد أجاب عليها شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في كتاب كشف الشبهات ويقال هنا: أن هذه الدعوة باطلة فإن مشركي العرب الذين كفرهم الله عز وجل لم يعتقدوا في اللات والعزى أنها تنفع وتضر إستقلالاً من دون الله عز وجل بل أخبر ربنا سبحانه وتعالى عنهم أنهم ما عبدوها إلا لتقربهم إلا الله زلفى فاعتقدوا أن النافع الضار هو الله وأنها هؤلاء الأوثان أو هذه الأشجار أو هذه الأحجار إنما هي وسيلة ووسطاء وشفعاء عند الله عز وجل كما قالوا هؤلاء شفعائنا عند الله، زعموا أن هذه الأنداد وهذه الأوثان أنها شفعائهم عند الله عز وجل.
إذًا هذه الدعوة باطلة وكفار قريش لم يعتقدوا في آلهتهم بأنها تنفع وتضر إستقلالاً وإنما النافع والضار هو الله وكما جاء عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنه-: (أن الرسول هل بالتوحيد وأنه كان مشركي العرب يهلون بهلالهم وهو قولهم: لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إلا شريكًا تملكه وما ملك) (¬١) فهذا إقرار منهم أن آلهتهم التي يدعونها ويسألونها لا تملك نفعًا وضرًا إستقلالا وإنما النافع الضار هو الله سبحانه وتعالى ومع ذلك كفرهم الله عز وجل مع إعتقادهم أن الله هو النافع الضار وكذلك أنتم يا من أشركتم بعبد القادر الجيلاني أو بالعيدروس أو بالدسوقي وغيرهم ممن عبدتموهم من دون الله وإن أعتقدتم فيها أنها لا تنفع ولا تضر إستقلالاً وإنما هم شفعاء عند الله، فأنتم كذلك كفار مشركون بالله كما كفر الله عز وجل وحكم على مشركي العرب بالشرك الأكبر لأنهم عبدوا غير الله.
الجواب الثالث على هذه الشبهة نقول: الكفر دركات فلا شك أن من اعتقد في الألهة أو الأوثان التي تعبد من دون الله أنها تنفع وتضر يكون كفره أغلظ وشركه أعظم والذي لا يعتقد أنها تنفع وتضر هو مشرك بالله عز وجل هو كافر بالله عز وجل لكنه دون الأول في الشرك والكفر ولا يلزم عندما نقول أن ذاك يعتقد وأن ذاك يظن أنها تنفع وتضر أن غيره الذي يدعوها من دون الله وهو لا يعتقد ذلك أنه لا يكفر ولا يشرك بل نقول هذا كافر الذي أعتقد فيها النفع والضر وكفره من أغلظ الكفر وشركه من أعظم الشرك وكذلك الذي سألها ودعاها من دون الله عز وجل واعتقد أنهم وسطاء أو شفعاء أو وسائل هو كذلك مشرك بالله كافر بالله عز وجل بإجماع أهل السنة.
المسألة الثالثة:
أنهم قالوا أيضا أنكم تشبهون الأولياء والصالحين بالأحجار والأشجار فكفار قريش كانوا يعبدون أحجارًا وأشجارا ونحن نعبد أو نسأل أولياء وصالحين وصديقين وأنبياء ورسل فكيف تشبهون هؤلاء بهؤلاء؟
نقول هذه الشبهة شبهة داحضة و باطلة لأن الله سبحانه وتعالى عندما كفر مشركي العرب كفرهم على إختلاف معبوداتهم وآلهتهم فاليهود مثلاً يعتقدون في عُزَيْر أنه ابن الله وكفرهم الله عز وجل والنصارى يعبدون المسيح ابن مريم وكفرهم الله عز وجل وبعض مشركي العرب كانوا يعبدون اللات وهو رجل يلت السويق وهو رجل صالح وكفرهم الله عز وجل بل بعض مشركي العرب كانوا يعبدون الملائكة ويعتقدون أنها بنات الله عز وجل ويتوسلون إليها من دون الله عز وجل وكفرهم الله عز وجل، إذًا العبرة بصرف العبادة لا بنوع المعبود فأنتم أيها المشركون في هذه الأزمنة قد صرفتم العبادة لغير الله سبحانه وتعالى وجعلتم الأولياء والصالحين شركاء مع الله وأندادًا له في دعائهم وسؤالهم.

(¬١) المعجم الأوسط للطبراني (٨/ ٤٥) برقم:٧٩١٠ , ط: دار الحرمين , تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد وعبد المحسن الحسيني
المسألة الرابعة:

أراد المؤلف -رحمه الله تعالى- في هذه القاعدة أن يبين معنى الشفاعة والشفاعة هي أن يضم الشافع قوله إلى قول من يشفع عنده .. الشفاعة أصلها من ضم قولك إلى قول غيرك في مسألة تطلبه إليها فعندما تشفع لشخص عند شخص فإنك تجمع قولك مع قول المشفوع له لذلك الشخص الذي تطلب الشفاعة عنده فتجعل قولك وقول المشفوع له واحدا وكذلك الشافع عند الله عز وجل هو الذي يطلب من الله عز وجل مغفرة الذنوب لذلك العبد أو إخراجه من النار أو إدخاله الجنة كما سيأتي في مسائل الشفاعة.

إذًا هذه معنى الشفاعة .. الشفاعة الشيخ أطال فيها في كتاب كشف الشبهات وهنا أيضًا بين ووضح.

الشفاعة فيها مسائل:

المسألة الأولى في الشفاعة:

أن الشفاعة ملكٌ لله عز وجل ولا يستطيع مخلوق أن يبتدأها أو أن يبادر بها إلا بعد أن يأذن الله لذلك الشافع بشفاعته كما قال الله تعالى: {قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً} (¬١) فالشفاعة كلها ملك لله وطلب الشفاعة من غير الله عز وجل بعد موت ذلك الشخص يكون من الشرك الأكبر.

عندما يأتي الرجل إلى قبر النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول: يا رسول الله إشفع لي .. نقول: كفرت بالله عز وجل لأنك طلبت شيئًا لا يملكه إلا الله من غير الله عز وجل وهذه مسألة سيأتي لها زيادة إيضاح.

المسألة الثانية:

أن الشفاعة لا يشفع الشافع ولا يشفع للمشفوع إلا إذا حقق الشافع شرط الإذن والمشفوع حقق شرط الرضا فإن الشافع لا يشفع حتى يأذن الله له و الله لا يأذن إلا لأهل التوحيد ومن أراد الله إكرامه بهذه الشفاعة أما المشفوع له فلا يشفع شخص في عرصات القيامة إلا إذا كان من أهل التوحيد فالشفاعة منفية عن كل مشرك وعن كل كافر إلا عم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقد استثناه ربنا سبحانه وتعالى بإكرام رسوله أن يشفع لعمه في تخفيف العذاب عليه لا في إخراجه من نار جهنم.

إذًا الشفاعة شفاعتان:

١. شفاعة منفية
٢. شفاعة مثبتة

أما الشفاعة المنفية: هي كل شفاعة اختل فيها شرط من شروط الشفاعة وشروط الشفاعة ثلاثة:

١. الإذن للشافع
٢. والرضا عن المشفوع له
٣. الرضا عن الشافع أيضا

وإن كان بعضهم يجعلها شرطين:

١. الإذن للشافع
٢. والرضا عن المشفوع له

ولكن لا شك أن الله لا يأذن إلا لمن رضي عنه، لا يأذن الله عز وجل بالشفاعة إلا لمن رضي عنه وبعد ذلك الرضا عن المشفوع و الله سبحانه وتعالى لا يرضى عن مشرك والمشرك ليس له في الشفاعة حق.

(¬١) الزمر: ٤٤

المسألة الثالثة:

هل يمكن طلب الشفاعة من الحي أو من الحي الحاضر؟ نقول: نعم الصحيح أنه يمكن طلب ذلك من الحي الحاضر ولكن هذه الشفاعة التي يطلبونها من ذلك الشافع لا يمكن أن يشفع إلا بعد أن يأذن الله عز وجل فإذا أتى شخص مثلاً لشخص وقال: يا فلان اشفع لي عند الله، إذا سألك الشفاعة نقول: لا حرج في ذلك وقد أخطئ بعض الناس فظن أن سؤال الشفاعة من الحي كسؤالها من الميت وجعلهما في حكم واحد وحكم على السائل للحي والميت أنه مشرك شرك أكبر وهذا قول غير صحيح مخالف للنصوص بل في حديث أبي

هريرة وحديث أنس بن مالك وحديث أبي ذر -رضي الله تعالى عنهما- في الصحيحين: في قصة شفاعة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عندما يفزع الخلائق كلهم إلى آدم ثم إلى إبراهيم ثم إلى موسى ثم إلى عيسى -عليهما السلام- فكلهم يتبرأ من الشفاعة حتى يأتوا إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - فيقال: اشفعْ لنا، ألا ترى ما نحن فيه؟ فيشفع النبي - صلى الله عليه وسلم - ففي قولهم (اشفعْ لنا) (¬١) (¬٢) دل على جواز طلب الشفاعة من الحي فإنهم خاطبوه لكونه حيّا وهو يسمعهم وهو حاضر وقد استجاب وانطلق إلى الله سبحانه وتعالى وخر ساجدًا بين يديه فقال الله له: (يا محمد ارفع رأسك وسل تعطى واشفع تشفع) لكن لا يملك رسولنا - صلى الله عليه وسلم - أن يشفع قبل أن يأذن الله له، لا يستطيع أن يشفع إلا إذا قال الله له: (اشفعْ) فإذا أذن الله له بالشفاعة شفع رسولنا - صلى الله عليه وسلم - (¬٣) (¬٤) وفي حديث أبي سلمة عن ربيعة بن كعب -رضي الله تعالى عنه- أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: (سلني يا ربيعة أعطك) فقال: (أسالك أن تشفع لي إلى ربك فيعقتني من النار) (¬٥) ففي هذا جواز طلب الشفاعة من الحي.

إذًا حكم طلب الشفاعة من الميت أنها شرك أكبر يخرج من دائرة الإسلام، وطلبها من رسولنا - صلى الله عليه وسلم - وهي شبهة يدعيها القبوريون وقالوا أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أنه له المقام المحمود وأنه يشفع يوم القيامة .. نقول: نعم الرسول - صلى الله عليه وسلم - يشفع يوم القيامة ولكنه نهاك أن تسأله بعد موته - صلى الله عليه وسلم - وأخبرنا أن سؤال الأموات ودعائهم هو صرف عبادة لغير الله عز وجل وطالب الشفاعة من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - له حالتان:

• ... إما أن يطلبها بعيدة عن قبره فهذا كافر بالإجماع ومشرك بالإجماع لسببين:

١. أنه سأل غير الله عز وجل ودعا غيره.

٢. أنه اعتقد أن محمدًا - صلى الله عليه وسلم - يعلم الغيب ويطلع عليه لأنه كان نائيًا عنه وبعيدًا عنه

• ... أما إذا سألها عند قبره فإنه يكون أيضًا قد وقع في الشرك الأكبر لأنه سؤاله: يا رسول الله اشفع لي هو نوع دعاء ونوع مسألة صرفها لغير الله شرك أكبر.

وقد قال بعضهم أن هذه من المسائل التي تحتاج إلى تبيين وإيضاح وأنه لا يكفر فاعلها حتى تبين له وتقام عليه الحجة وتدفع عنه شبهة أن النبي - صلى الله عليه وسلم - يسمع في قبره.

¬__________

(¬١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب التفسير, باب " {ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا} " برقم: ٤٧١٢

(¬٢) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان, باب " أدنى أهل الجنة منزلة فيها " برقم: ١٩٤

(¬٣) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب التوحيد, باب " قول الله تعالى {يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ} " برقم: ٧٥١٠

(¬٤) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان, باب " أدنى أهل الجنة منزلة فيها " برقم: ١٩٣

(¬٥) رواه الألباني في "إرواء الغليل في تخرج أحاديث منار السبيل" في كتاب الصلاة (٢/ ٢٠٩) وقال: إسناده حسن.

المسألة الرابعة:

الشفاعة عند أهل السنة مثبتة خلافًا للمعتزلة وخلافًا للخوارج فإن المبتدعة من المعتزلة والخوارج ينفون الشفاعة مطلقا أما أهل السنة فيثبتون الشفاعة بشروطها التي ذكرت قبل قليل، ويثبتون الشفاعة لنبينا - صلى الله عليه وسلم - وللأولياء وللصالحين وللشهداء وهو الشفاعة شفاعتان:

- خاصة لرسولنا - صلى الله عليه وسلم -.

- عامة.

والشفاعة الخاصة هي ثلاث شفاعات أو أربع:

١ - ... شفاعته - صلى الله عليه وسلم - في فصل القضاء بين الخلق وهو المقام المحمود الذي يحمد الخلق كلهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عليه، عندما يقوم الرسول - صلى الله عليه وسلم - ويفزع إليه الخلائق كلهم من الأنس والجن ومن جميع البشر يقولون:

(يا رسول الله اشفع لنا عند ربك ألا ترى ما نحن فيه؟) فيأتي ربه ويسجد سبتا فيفتح الله عليه المحامد مالا يحسنه في ذلك الوقت فيقول الله له: (يا محمد ارفع رأسك وسل تعطى واشفع تشفع) فيقول: (يا ربي أمتي أمتي) (¬١) فيأتي الله بعد ذلك لفصل القضاء.

٢ - ... شفاعته في فتح أبواب الجنة فإن الجنة لا تفتح حتى يشفع الرسول - صلى الله عليه وسلم - في فتح أبوابها فإن أهل الجنة يحبسون عند أبواب الجنان حتى يأتي رسولنا - صلى الله عليه وسلم - فيطلب الشفاعة عند الله أن يفتحِ أبواب الجنة فيفتح الله أبواب الجنة فيأمره أن يدخل من بابها الأيمن الله فيدخل معه سبعون ألفا من المؤمنين كلهم آخذٌ بيد صاحبه.

٣ - ... شفاعته لعمه أبي طالب فإن أبا طالب كافر بالله عز وجل مشرك بالله مات عند أهل السنة مشركًا كافرا وهو خالد مخلد في النار، ولكن جاء في الصحيحين عن النعمان بن البشير وعن العباس بن عبد المطلب أنهما سألا الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن عمه: هل نفعتَ أبا طالبٍ بشيءٍ، فإنهُ كان يحوطُكَ ويغضبُ لكَ؟ قال: (هو في ضَحْضاحٍ مِن نارٍ، ولولا أنا لكان في الدَّرَكِ الأسفَلِ مِن النارِ) (¬٢) (¬٣) " ضَحْضاحٍ " أي في أعلاها ولولا أنا لكان في أسفلها فهو الذي يوضع تحت قدميه جمرتان يغلي منها دماغه ويرى أنه أشد أهل النار عذابًا وهو أهونهم، ولا يشفع في غير هذا الرجل من المشركين والكفار فكل مشرك وكافر فلا شفاعة له ولا تناله الشفاعة يوم القيامة.

٤ - ... الشفاعة الرابعة وقد وقع فيها خلاف .. هل هي خاصة بالرسول - صلى الله عليه وسلم - أو يشاركه غيره فيها والصحيح أنها ليست بخاصة بل تدخل تحت مسمى الشفاعات العامة التي يشترك فيها الرسل والأنبياء والأولياء والصالحين والشهداء كلهم يشفعون في مثل هذه الشفاعة وهي الرابعة وهي الشفاعة في رفع درجاتٍ في الجنة يكون درجته في أسفل فيرفعه الله عز وجل بشفاعة ولده بشفاعة زوجه إلى درجة أعلى من الدرجة التي كان فيها.

٥ - ... الشفاعة لأناس دخلوا النار أن يخرجوا منها وهذه عامة لجميع المؤمنين ولجميع من أراد الله إكرامهم بالشفاعة

٦ - ... في أناس وجبت لهم النار أن لا يدخلوها وهذا يشفع في مثل حافظ القرآن يشفع في أربعين من أهله كل وجبت له النار وأيضًا الشهيد يشفع في سبعين من أهله فيشمل هؤلاء السبعين إما أن يكون داخلا في النار فيخرج منها أو لم يدخلوها، كل هذا محتمل لحديث المقداد -رضي الله تعالى عنه-.

أيضًا شفاعة المؤمنين في رفع الدرجات لأهل الجنة (ويدخل هذا في الشفاعة الرابعة) منهم أيضًا من يدخل في ذلك أصحاب الأعراف أنهم أيضًا ممن وجبت لهم النار فمنعتهم حسناتهم.

هذه الشفاعات ست شفاعات، ثلاثُ منها يشترك فيها المؤمنون وثلاثٌ خاصة بالنبي - صلى الله عليه وسلم -.

____

(¬١) سبق تخريجه في الصفحة السابقة

(¬٢) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب مناقب الأنصار , باب " قصة أبي طالب " برقم: ٣٨٨٣

(¬٣) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان , باب " شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه" برقم: ٢٠٩

المسألة الخامسة:

قولهم ما توجهنا إليهم إلا لطلب القربة والشفاعة، يقال لهؤلاء القبوريين والمشركين أنتم محرومون من هذه الشفاعة بنص الكتاب فإن شفاعة الله لا ينالها المشرك ولا ينالها الكافر وأنتم بسؤالكم الأموات ودعائكم إياهم بطلب الشفاعة منهم قد حرمتم أنفسكم من هذه الشفاعة لأنكم تلبستم بالشرك و الله لا يرضى عن المشركين ولا يأذن لمشرك أن يشفع ولا يرضى لمشرك أن يشفع فيه.

إذًا فعلكم هذا أبطل كل شفاعة تعلقتم بها سواء كانت مثبتة فقد نفيتموها بفعلكم الشرك وخروجكم من دائرة الإسلام.

٤ القاعدة الثالثة

القاعدة الثالثة:
(أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ظَهَرَ عَلَى أُنَاسٍ مُتَفَرِّقِينَ فِي عِبَادَاتِهِمْ، مِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْمَلاَئِكَةَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الأَنْبِيَاءَ وَالصَّالِحِينَ، وَمِنْهُم مَن يَعْبُدُ الأَشْجَارَ وَالأَحْجَار، وَمِنْهُم مَن يَعْبُدُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، وَقَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَهُمْ، وَالدَّلِيل قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ} [الأنفال: ٣٩].
وَدَلِيلُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} [فصلت: ٣٧].
وَدَلِيلُ الْمَلاَئِكَةِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلاَئِكَةَ وَالنِّبِيِّيْنَ أَرْبَاباً ... } الآية [آل عمران: ٨٠].
وَدَلِيلُ الأَنْبِيَاءِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ} الآية [المائدة: ١١٦].
وَدَلِيلُ الصَّالِحِينَ، قَوْلُهُ تَعَالَى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ... } الآية [الإسراء: ٥٧].
وَدَلِيلُ الأَشْجَارِ وَالأَحْجَارِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: {أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى} [النجم: ١٩، ٢٠].
وَحَدِيثُ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِلَى حُنَيْنٍ وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ، وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ، يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا وَيَنُوطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ، يُقَالُ لَهَا ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ. الحَدِيثَ.)

هذه القاعدة الثالثة وهذه القاعدة ذكر فيها شيخ الإسلام -رحمة الله تعالى- أن النبي - صلى الله عليه وسلم - ظهر على أناس متفرقين في عباداتهم منهم من يعبد الملائكة ومنهم من يعبد الأنبياء والصالحين ومنهم من يعبد الأشجار والأحجار ومنهم من يعبد الشمس والقمر وقاتلهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولم يفرق بينهم ثم ذكر الدليل على ذلك وهو قوله تعالى: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ} هذه القاعدة أراد بها شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى- تقرير أمر مهم وهو أن النبي - صلى الله عليه وسلم - أُرسل إلى أقوام متفرقين متغائرين في نوع عبادتهم فمنهم من يعبد الملائكة ومنهم من يعبد الأنبياء ومنهم من يعبد الصالحين ومنهم من يعبد الشمس والقمر ومنهم من يعبد الأحجار والأشجار ومنهم من يعبد غير ذلك.
والشيخ -رحمه الله تعالى- لم يرد بهذا الحصر في أنواع المعبودات وإنما أراد أن يبين أن أولئك الذين ظهر فيهم النبي - صلى الله عليه وسلم - كانوا متفرقين في عباداتهم ولم يفرق رسولنا - صلى الله عليه وسلم - في الحكم عليهم وقد حكم عليهم بأمرين:
١. حكم عليهم بالكفر أجمعين، ولم يجعل من عبد الأنبياء والصالحين والرسل والملائكة أنه غير كافر ومن عبد الأحجار والأشجار فهو المشرك الكافر بل حكم على الجميع بكونهم كفار خارجون من دائرة التوحيد مشركون بالله عز وجل.
٢. أنه قاتلهم جميعًا، قاتل الذين يعبدون الملائكة وقاتل الذين يعبدون الأشجار والأحجار والأوثان ولم يجعل لهؤلاء حكمًا خاصًا بهم، ولهؤلاء حكمًا خاصًا بهم.
ومراد الشيخ -رحمه الله تعالى- في هذه القاعدة أن يرد على مشركي زمانه وهي شبهة انتشرت عندهم وهي قولهم كيف تجعلوننا أي تجعلون من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله تجعلونه كمن يعبد الأحجار والأشجار والأوثان فإن الذين خرج عليهم النبي -

صلى الله عليه وسلم - وكفرهم وقاتلهم كانوا يشركون بأحجار وأشجار وأوثان ولذلك قاتلهم وكفرهم أما هم أيها المشركون فهم كانوا يقرون بأنه رسول الله ويشهدون بألسنتهم بأنه لا إله إلا الله فكيف تشبهنا بهؤلاء عباد الأصنام والأوثان فذكر هذه القاعدة من باب الرد والتقرير، ففيها رد على هذه الشبهة لأن الذين خرج فيهم النبي - صلى الله عليه وسلم - كان منهم من يعبد الملائكة والملائكة لا يعصون الله ما أمرهم وكان منهم من يعبد عزير وكان يعبد المسيح -عليه السلام- وكان منهم من يعبد الصالحين كاللات وكان منهم من يعبد الأشجار والأحجار.

إذًا دعواكم هذه باطلة أنهم كانوا كلهم يعبدون الأحجار والأشجار هذه دعوة باطلة، بل فيهم من كان يعبد الأنبياء والصالحين ومع ذلك حكم الله وحكم رسوله - صلى الله عليه وسلم - بكفرهم وقاتلهم لأجل هذا الشرك وهذا الكفر.

الأمر الثالث: أن هذه القاعدة قائمة على أن العبرة "بصرف العبادة لا بنوع المعبود" فمن عبد حجرًا وشجرًا هو كمن عبد وليًا وصالحًا فإنهم يشتركون جميعًا بأنهم عبدوا غير الله عز وجل , وقد جاءت الآيات الكثيرة على إفراد الله عز وجل بالعبادة كقوله تعالى: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً} وقوله تعالى: {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا} وهذا أمرٌ من الله سبحانه وتعالى أن لا يشرك به أحد لا ملك مقرب ولا نبي مرسل، ففي قول: {وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً} هذا نهيٌ وهذا النهي يفيد العموم لأن النكرة شيء جاءت في سياق النهي، والنكرة إذا جاءت في سياق النهي أفادت العموم و "شيء" يطلق على كل من يصلح أن يعلم فكل ما يصلح أن يعلم يسمى "شيء" بل كل ما يؤول إلى علم يسمى أيضًا "شيء" فالأنبياء يطلق عليهم شيء والصالحون يطلق عليهم شيء والأولياء يطلق عليهم شيء والأحجار والأشجار وكل ما عبد من دون الله يطلق عليه شيء، ففي هذه الآية إبطال عبادة غير الله وإبطال عبادة كل معبود سوى الله عز وجل وأن العبادة لا تكون إلا لله سبحانه وتعالى ومثلها أيضًا قوله تعالى: {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا} ففي قوله (فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا) أيضًا نهي أن يدعى مع الله غيره وكلمة "أحد" أيضًا نكرة جاءت في سياق النهي فأفادت العموم أنه لا يدعى مع الله غيره، ولذلك قال شيخ الإسلام في الأصول الثلاثة في المسألة الثانية (أَنَّ اللهَ لا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أحد لا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ عِنْدَهُ، وَلا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ) فإذا كان الله لا يرضى أن يشرك معه الملائكة ولا يشرك معه الأنبياء وهما أفضل خلق الله عز وجل الرسول الملكي وهو جبريل -عليه السلام- والرسول البشري وهو محمد - صلى الله عليه وسلم - لا يرضى الله أن يشرك به هذين الرسولين، فكيف بغيرهما من الأحجار والأشجار أو الأولياء أو الصالحين.

إذًا هذه القاعدة أبطل فيها شيخ الإسلام هذه الدعوة الباطلة وهي أن كفار العرب و مشركي العرب كانوا يعبدون أحجارًا وأشجارا وهم يعبدون صالحين وأولياء وأبطل أيضًا دعواهم أنهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله فإن معنى لا إله إلا الله هو إفراد الله بالعبادة وبإجماع أهل العلم أن لا إله إلا الله لا تنفع صاحبها حتى يأتي بشروطها وأركانها فشروطها سبعة شروط وهي:

١. العلم
٢. اليقين
٣. الإخلاص
٤. الصدق
٥. المحبة
٦. الإنقياد
٧. القبول

وكذلك أركانها ركنان:

(نفي وإثبات) فمن نطق بلا إله إلا الله ولم يأتي بشروطها ولا بأركانها فإنها لا تنفعه ولا تغني عنه شيئا فاليهود يشهدون أن لا إله إلا الله وهم كفار بإجماع المسلمين، ولذلك لما قيل ابن المنبه أليس للجنة مفتاح؟ قال: نعم ولكن لابد لكل مفتاح من أسنان.

فمن أتى بلا إله إلا الله ولم يأتي بشروطها وأركانها فأنها لا تنفعه يوم القيامة، فدعواهم أنهم يشهدون أن لا إله إلا الله نقول:

هذه الدعوة باطلة وشهادتكم لا تغني عنكم شيئا لأنكم أشركتم بالله سبحانه وتعالى وعبدتم الأولياء والصالحين وجعلتهم لهم حظًا من العبادة التي لا يستحقها إلا الله.

أما دعواكم أن أولئك يعبدون أشجارًا وأحجارا فهذه أيضًا دعوة باطلة فكان من مشركي العرب من كان يعبد اللات وهو رجل صالح كان يلت السويق للحجاج وكان في زمانهم من يعبد الملائكة ومع هذا كله كفرهم الله عز وجل لأن العبرة "بصرف العبادة لا بنوع وجنس المعبود" فمن عبد حجرًا كان كمن عبد ملكًا أو نبيًا أو رسولا لأنه خالف أمر الله عز وجل وخالف معنى لا إله إلا الله وهو: إفراد الله عز وجل بالعبادة وأنه لا يستحق العبادة إلا الله سبحانه وتعالى فأوجب ذلك شرك بالله أمرين:

- أوجب كفرهم
- وأوجب قتالهم

فكل من أشرك بالله فأنه يكفر ويقاتل حتى يكون الدين كله لله سبحانه وتعالى.

ثم ساق الآيات وهي سبع آيات على هذه المعبودات: الشمس والقمر والأولياء والملائكة والأنبياء والرسل وعيسى -عليه السلام- وما شابه ذلك.

فأول آية ساقها على عبادة الشمس والقمر في قوله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} فهؤلاء القوم الذين نزلت فيهم هذه الآية كانوا يعبدون الشمس والقمر وهما الشمس والقمر خلق من خلق الله عز وجل وعبادتهم شرك بالله سبحانه وتعالى توجب لصاحبها الخلود في النار الخلود الأبدي.

وهذه أول آية تدل على أن من مشركي العرب من كان يعبد الشمس والقمر وذكر أيضًا قوله تعالى: {وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا} واتخاذ الملائكة والنبيين أربابا أي "آلهة" تعبد من دون الله عز وجل فإن بعض العرب من كان يقول: أن الملائكة بنات الله عز وجل وكان النصارى يتخذون عيسى ربًا وآلهًا كما جاء في حديث ابن حاتم عندما ذكر الله قوله تعالى: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ} قال علي ابن حاتم: يا رسول الله ما عبدناهم. قال: (أليسوا يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟) قال: نعم. قال: (تلك عبادتهم). (¬١)

فاتخاذهم أربابا أي "اتخاذهم آلهة تعبد من الله عز وجل" أو يكون لهم حق التشريع وحق التأليه ولا شك أن هذا نوع عبادة صرفت لغير الله عز وجل فأثبت في هذه الآية أن ممن نزلت فيه هذه الآية أنه يعبد الملائكة ويعبد النبيين وهم خلقة خلق الله عز وجل وأكرم خلق الله سبحانه وتعالى ومع ذلك كفرهم الله وحكم بوجوب قتالهم وأن يقاتلوا حتى يكون الدين كله لله.

____

(¬١) حسنه الألباني بمجموع الطرق في السلسلة الصحيحة برقم: ٣٢٩٣

وذكر أيضًا قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ} هذا فيه دليل على أن عيسى اتخذ إلهًا مع الله سبحانه وتعالى وأجمع المسلمون على كفر النصارى الذين ألهوا عيسى -عليه السلام- ولم يمنعهم كونهم عبدوا عيسى أنهم على التوحيد أو أنهم على الدين أو كونهم عبدوا رجلاً صالحاً ونبيًا مرسلاً من عند الله عز وجل أن يكون على الإسلام بل بعبادتهم لعيسى وتأليهم له كفروا بالله عز وجل وأشركوا وكان كفرهم أعظم الكفر وأغلظه لأنهم ألهوا خلقًا وبشرًا وجعلوه ابنًا لله عز وجل ووصفوا الله أنه حل في بطنه وعكر في عكر بطن مريم وأنه جامعها فأنتج ذلك لاهوتًا وناسوتًا فاجتمع اللاهوت والناسوت فكان منه عيسى -عليه السلام- ولاشك أن هذا من أعظم الكفر وكفرهم الله وكفرهم رسوله - صلى الله عليه وسلم -.

ثم ذكر أيضًا دعاء الصالحين في قوله: {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ} (¬١) أي أولئك الذين تدعونهم أيها المشركون وتطلبون منهم قضاء الحاجات وتسألونهم هم أيضًا عبادٌ أمثالكم يسألون الله ويرجونه ويتقربون إليه بالأعمال الصالحة، فأثبتت

هذه الآية أن هؤلاء الذين يدعون من دون الله هم أناس صالحون يرجون رحمة الله ويخافون عذابه ومع ذلك لم ينفع أولئك العابدين الذين عبدوهم كون معبودهم صالحاً أو ولياً أنه لا يكفر ولا يقتل بل حكم الله بكفرهم وأوجب أيضًا قتالهم.
ودليل الأشجار والأحجار قوله تعالى: {أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى} (¬٢) واللات والعزى فأما اللات فهو رجل كان يلت السويق هو رجل صالح كان يصنع ذلك للحجاج، وأما العزى فهي شجرةٌ كانت تعبد من دون الله عز وجل وأما "منات" فهي أيضًا حجر يعبد من دون الله سبحانه وتعالى، فهذه الأشجار والأحجار التي تعبد من دون الله وهي طواغيت اتخذها مشركوا العرب كفرهم الله عز وجل ووصف بأن فعلهم شرك وأنهم خالدون في نار جهنم وأوجب قتالهم حتى يكون الدين كله لله عز وجل.
وذكر هنا حديث أبي واقد الليثي وحديث أبي واقد الليثي هذا رواه الترمذي وغيره من طريق الزهري عن أبي سنان الدؤلي عن ابي واقد الليثي قال: (خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِلَى حُنَيْنٍ وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ، وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ، يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا وَيُنُوطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ، يُقَالَ لَهَا ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ. الحَدِيثَ). (¬٣)
إيراد المؤلف لهذا الحديث ليبين أن إتخاذ الأشجار كان معروفًا عند العرب وكانوا يعكفون حول سدرة لهم يعبدونها ويقنطون بها أسلحتهم ويتبركون بها وجعل النبي - صلى الله عليه وسلم - ذلك الفعل أنه اتخذ فاعلها إلهًا من دون الله عز وجل، لأنهم أنزلوها منزلة الإله الذي يعبد.
وهذا الحديث قد أعل لعلل أعل أولاً:
في إسناده لأن في أبو سنان الدؤلي وقال أنه لا يعرف وأنه مجهول، والصحيح أن أبا سنان هذا أنه روى له البخاري في صحيحه في الشواهد وأخرج مسلم في الأصول وقد روى عنه الزهري وروى عنه زيد بن الأسلم فالصحيح أنه معروف وأنه ثقة وأن حديثه هذا صحيح.
أيضًا أعل بمتنه بأنه كيف يمر - صلى الله عليه وسلم - على هذه السدرة ولا يقطعها، فنقول:

____
(¬١) الإسراء: ٥٧
(¬٢) النجم: ١٩
(¬٣) أخرجه الترمذي في الجامع برقم: ٢١٨١ وقال (حديث حسن صحيح)

أما كونه - صلى الله عليه وسلم - مر ولم يقطعها ليس فيه ما يستدل به فقد يكون النبي - صلى الله عليه وسلم - قطعها وأزالها فليس في الخبر أن النبي - صلى الله عليه وسلم - تركها وأيضًا يحتمل أن النبي - صلى الله عليه وسلم - أخرها لأمر هو أعظم وأهم منها لا أنه - صلى الله عليه وسلم - أقرهم على فعلهم أو أقر هؤلاء المشركين على أن ينوطوا بها أسلحتهم أو أقر هؤلاء المشركين أن يعبدوا غير الله عز وجل ليس في الحديث ما يدل على ذلك كله.
وقيل أن هذه السدرة لم يكن فيها من يعبدها ومن ينوط بها السلاح ولكن لأن هؤلاء الذين مروا بها حدثاء عهد بإسلام وذكروا أن هذه السدرة التي مروا بها كانوا يفعلون بها ذلك طلبوا من الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يفعل أو أن يجعل لهم سدرة مثل ذلك، لا أنه في حال مرور النبي - صلى الله عليه وسلم - كان هناك من يعكف بها وينوط بها سلاحه، فالصحيح أن الحديث صحيح ولا علة فيه لا في متنه ولا في إسناده.
قد احتج في هذا الحديث بعض من يعذر بالجهل وقال هذا دليل على أن الجاهل يعذر حيث أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يكفر هؤلاء الصحابة مع أنهم جهلوا التوحيد وهذا غير صحيح فالحديث ليس فيه حجة لهذا القول، بل فيه أن هؤلاء الذين طلبوا من النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يجعل لهم سدرة يعكفون حولها أسلحتهم أنهم عندما قلتم: (والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل: {اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا} (¬١) أي: شابهتموهم في القول وإلا قصد هؤلاء الصحابة الذين كانوا حديثي عهد بالإسلام قصدهم البركة أن يتبرك بهذه الشجرة ولا شك أن البركة تطلب من الله عز وجل فهم قالوا للنبي - صلى الله عليه وسلم - (أجعل لنا ذات أنواط تكون لنا فيها

بركة من الله سبحانه وتعالى نتبرك بها) وتكون البركة بجعل الله عز وجل في تلك الشجرة البركة هذا قول، وهذا قول الشاطبي وشيخ الإسلام ابن تيمية أنهم شابهوهم بالقول ولم يشابهوهم في الفعل.
القول الثاني أنهم طلبوا ولم يفعلوا ولو فعلوا لكفروا بالله عز وجل وهذا قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالى-.
والقول الثالث: أنهم سألوا المشرع ولو أجاز لهم النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يفعلوا ذلك لكان ذلك جائزًا ولا نكارة فيه.
الصحيح نقول:
ليس في هذه المسألة وفي هذا الحديث حجة لمن عذر بالجهل وقال أنه يعذر في التوحيد بجهل العبد، ونقول: أن هؤلاء الصحابة الذين كانوا حديث عهد بإسلام إنما شابهوا أولئك الذين جعلوا لهم سدرة يعكفون بها شابهوهم بالطلب فقال الرسول - صلى الله عليه وسلم -: (والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل: {اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا} فشابهوهم بالطلب لا في الفعل، ولا شك أن التبرك بالأشجار والأحجار لا يجوز لكنه ليس شركًا أكبر بل شرك أصغر قد يعذرون فيه بسبب كونهم حديثوا عهد بإسلام أما الشرك الأكبر في أصل التوحيد فلا يعذر أحد بالجهل فيه.
إذًا هذا الحديث هو حديث صحيح وإسناده صحيح ولا علة فيه.

____
(¬١) سبق تخريجه في الصفحة السابقة

٥ القاعدة الرابعة

القاعدة الرابعة
(أَنَّ مُشْرِكِي زَمَانِنَا أَغْلَظُ شِرْكًا مِنَ الأَوَّلِينَ، لأَنَّ الأَوَّلِينَ يُشْرِكُونَ فِي الرَّخَاءِ، وَيُخْلِصُونَ فِي الشِّدَّةِ، وَمُشْرِكُو زَمَانِنَا شِرْكُهُمْ دَائِمٌ فِي الرَّخَاءِ وَالشِّدَّةِ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ} [العنكبوت: ٦٥])
هذه القاعدة القاعدة الرابعة ذكرها شيخ الإسلام -رحمه الله تعالى- لتبيين أمور، أولاً .. هي قاعدة تكميلية أراد أن يُكمل بهذه القواعد وهذه القاعدة التكميلية فيها فوائد:
١ - أن الشرك لا يشترط فيه الكثرة أو القلة حتى يكون شركًا ولا يشترط في المشرك حتى يكون مشركا أن يشرك أكثر زمانه أو غالب زمانه، بل يوصف العبد بالشرك ولو أشرك طرفة عين يسمى مشركا ولا يشترط أن يشرك طوال حياته أو طوال زمانه حتى يوصف بهذا الوصف بل لو عبد العبد ربه طوال عمره وسنين دهره وهو على التوحيد ثم أشرك بالله عز وجل مرة واحدة في عمره ولم يتب إلى الله عز وجل فإن جميع أعماله تحبط ويكون مشركًا شركًا أكبر، ولا ينفعه إسلامه ولا إيمانه السابق كما قال تعالى: {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ} وتؤخذ هذه الفائدة من قوله أن مشركي العرب كانوا يشركون في الرخاء ولا يشركون في الشدة ومع شركهم في الرخاء كانوا يسمون مشركين وكفار ولا يشترط كون الشرك دائمًا أو ملازمًا لجميع أحوالهم.
٢ - أن هؤلاء الذين في زمن الشيخ محمد بن عبد الوهاب كأنهم أنفوا واستأنفوا أن يشبهوا بمشركي العرب وأنه كيف يشبههم شيخ الإسلام بعباد الأوثان والأشجار والأحجار فأراد شيخ الإسلام بهذه القاعدة أن يبين أن أولئك المشركين هم أفضل منكم من جهتين:
- من جهة الكم
- ومن جهة الكيف في نوع الشرك
فمن جهة الكم مشركي العرب أخف شركا فأنتم أيها المشركون في زمن شيخ الإسلام تشركون في زمن الرخاء وفي زمن الشدة وأما مشركوا زمن النبي - صلى الله عليه وسلم - يشركون في زمن الرخاء، أما في زمن الشدة فهم يخلصون لله عز وجل ولا شك أن الذي يشرك في زمن واحد أخف من الذي يشرك في زمانين ويكون أقل كفراً وأقل شركًا وكلاهما مشركٌ كافر ولكنه يكون أخف من جهة كثرة الشرك وقلته.

الأمر الثاني من جهة الكيف فمشركوا زمان الشيخ كانوا يشركون بالفسقة والفجرة ويعبدون شرار الخلق كتاجٍ وشمسانٍ وغيرهم ممن كان فاجرًا ساحرًا كاهنًا عرافًا متلبسًا بالفسق والفجور والزنا والفواحش وهم مع ذلك يعبدونهم ويدعونهم ويسألونهم ويرجون منهم البركة أما مشركي زمان النبي - صلى الله عليه وسلم - فهم أحجار وأشجار لا يعصون الله عز وجل ولا يتلبسون بمنكر أو محرم أو فاحشة ولا شك أن عبادة الشجر والحجر أخف من عبادة فاجر فاسق متلبس بالشهوات والشبهات والفواحش يكون من جهة الكيف هذا أخف فأراد الشيخ أن يكسر هذا الكبرياء في قلوب أولئك المشركين في زمانه وأنهم يأنفون أن يشبهوا بمشركي العرب فقال: بل هم أفضل منكم من جهتين:

- من جهة الكيف
- ومن جهة الكم.

٣ - أن هذه القاعدة الرابعة التي ختم بها المؤلف -رحمه الله تعالى- كأنه يبين فيها معنى التوحيد ففي هذه القواعد الأربع رد على جميع الشبه التي تعلق بها مشركي زمانه فالقاعدة الأولى ردٌّ على أن الشرك إنما يقصر في توحيد الربوبية فأبطل هذا القول بالقاعدة الأولى فإن مشركي العرب كانوا يقرون بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت ومع ذلك سماهم الله كفارا وسماهم الله مشركين لأن كفار زمن الشيخ كانوا يقولون: (إنما الشرك يكون في شرك الإعتقاد "شرك الربوبية" أن تعتقد فيمن تدعوا النفع والضر) والقاعدة الثانية أبطل فيها الشفاعة والتوجه للصالحين والأولياء والقاعدة الثالثة أبطل فيها التفريق بين من يعبد حجرًا أو يعبد وليًا وصالحا والقاعدة الرابعة أبطل أن يكون الشرك ملازمًا للعبد في كل أحواله وأنه لا يسمى مشركًا إلا إذا أشرك في جميع أحواله وأما إذا أشرك في زمان دون زمان لا يسمى مشرك فأراد أن يبطل هذا القول وهذه الشبهة وأن العبد متى ما تلبس بالشرك فأنه يسمى مشرك خارج من دائرة الإسلام والتوحيد ولو أشرك طرفة عين، وكذلك أراد أن يبين أن من يعبد الأولياء والصالحين ويعبد الأحجار والأشجار أخف شركًا ممن يعبد الفجرة والفسقة وكذلك الذي يشرك بالله في زمن الرخاء أخف ممن يشرك بالله في زمن الشدة والرخاء وكلهم كفارٌ مشركون خالدون في نار جهنم أبد الآباد يجب قتالهم حتى يكون التوحيد كله لله سبحانه وتعالى.

وبهذا نكون قد أتممنا وأنهينا هذه القواعد الأربع التي أتى فيها شيخ الإسلام على أصول القبوريين والخرافيين فنقضها وهدمها فرضي الله عنه وأسكنه الله فسيح جناته والله أعلم وأحكم وصلى اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد.

٦ الملحق: ترجمة مختصرة للشيخ خالد الفليج

الملحق: ترجمة مختصرة للشيخ خالد الفليج
الشيخ المحدث / خالد بن إبراهيم بن سعد الفليج
من مواليد عام ١٣٩٠ هـ
تتلمذ على عدد من المشايخ منهم:

- الشيخ/ عبد العزيز بن باز - رحمه الله -.
- الشيخ/ عبد الله بن جبرين - رحمه الله - ولازمه ١٣ سنة.
- الشيخ/ عبد الرحمن البراك- حفظه الله-
- الشيخ/ عبد الله السعد - حفظه الله -.
- برع الشيخ في علم العقيدة والحديث وهو مجاز في أكثر الكتب الحديثية.
- له العديد من الدروس والمحاضرات واللقاءات العلمية؛ وقد أنهى شرح كثير من المتون في مختلف العلوم, ومن ذلك على سبيل المثال:
- درس في صحيح البخاري.

- درس في سنن الترمذي.
- درس في سنن النسائي.
- شرح سلم الوصول لحافظ حكمي وفرغ في مذكرة.
- شرح الواسطية والطحاوية ولمعة الإعتقاد.
- شرح نخبة الفكر في المصطلح.
- شرح زاد المستقنع.
- شرح الداء والدواء.
- كما شرح العديد من المتون العلمية ككتب شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله-.
- وفي يوم الثلاثاء الموافق ٢١ - ١١ - ١٤٢٧ هـ كان الشيخ على موعد مع مكتب الدعوة والإرشاد في عفيف لإلقاء محاضرة عن الحج وبعد المحاضرة تم اعتقال الشيخ من قبل حكومة آل سعود وتم الإفراج عنه في ذو القعدة من عام ١٤٣٣.

٧ الفهرس

الفهرس: